

مَدْرَسَةُ الإسْكَنْدَرِيَّةِ



دراسة عن كتاب «الأجبية» القبطية (٧)

القس باسيلوس صبحي



ان لم تؤمنوا فلن تفهموا

دراسة عن كتاب "الأجبية القبطية" (٧)

القس باسيلوس صبحي



مدرسة الإسكندرية

دراسة عن كتاب ”الأجبية القبطية“ (٧)

القس باسيلوس صبحي
كاهن بكنيسة السيدة العذراء بالزيتون
دكتوراه في العلوم اللاهوتية - جامعة أثينا
أمين وحدة البحث بالمركز الثقافي القبطي
hamaged@alexandriaschool.org

مقدمة:

في الحلقة السابقة من سلسلة مقالاتنا - دراسة عن كتاب ”الأجبية القبطية“ - عرضنا مجموعة من الصلوات التي وصلتنا عن طريق عدد من قطع أوراق البردي Papyri أو قطع الفخار Ostraca أو العظام الحيوانية Bones أو الأخشاب Timber أو اللوحات Plates... إلخ، والتي كانت مستخدمة في الصلوات قبل ظهور الرهبنة. وفيما يلي نبدأ بترجمة (بتصرف) الجزء الأكبر من الفصل الثاني من رسالة الدكتوراه المشار إليها آنفاً، والمعنون باسم ”مكانة صلوات السواعي في الرهبنة القبطية“، لتتعرف معاً إلى تطور صلوات السواعي الليلية والنهارية إبان ظهور الرهبنة في القرن الرابع الميلادي وما بعده.

وقبل الولوج في صلب الموضوع، وعرض العديد من الشواهد التقليدية التي وصلتنا عن هذا الموضوع، لا بد أن ننوه إلى أنه لم تكن هناك ثمة اتفاق بين مجمع رهباني وآخر على صورة ثابتة لطقس تلك الصلوات. فبينما التجمعات الرهبانية في نتريا وكيليا ومنطقة الإسقيط (بالوجه البحري) كانت تنتهج منهجاً معيناً، كانت المجمع الرهبانية المنتشرة في صعيد مصر بطول ضفتي نهر النيل تميل لتطبيق منهج آخر. هذا بالإضافة للتجمعات الرهبانية التي كانت متناثرة في شبه جزيرة سيناء، والممتدة حتى الصحاري المتاخمة لمدينة أورشليم. وبما أن تجمعاً رهبانياً ما يميل لانتهاج حياة التوحد، وتجمعاً ثانٍ يُطبق حياة النصف شركة، وتجمعاً ثالثاً يعيش في حياة الشركة الكاملة، فكان من الطبيعي أن تجد الرهبان المتوحدين مثلاً يرفضون النغمات الطويلة والألحان الكنسية الشجية في الصلوات والتسابيح ويعتبرونها شيئاً من الترف

الذي لا يليق بالراهب المتوحد ἀναχωρητής، فاللحن المُطرب يسبب (يسد) لذة حسية (سمعية) لا تتناسب حياة الناسك ἀσκητής الذي ينكر على نفسه تسديد احتياجاتها الطبيعية مهما كانت. فكما يُقلل من ساعات نومه، ومن تزويد جسده بالطعام والشراب الكافيين، كذلك عليه أن ينكر عليها مثل هذه الملذات الحسية αἰσθηματικότητας.

وشهادتنا على هذا الموضوع نأخذها من أقوال القديس برصنوفيفوس الكبير^(١) في المقال التاسع والعشرين من كتاب الحاوي الكبير^(٢)، وفيما يلي نص كلامه:

[المقالة التاسعة والعشرين تشتمل على تمثال الصلاة وشكلها وتصرف المتوحدين وان المقروآت في البيع غير لايقه بالمتوحدين لا الالحن ولا الاطروباريا ولا الابروكسمناه وفي ان من مارس شيئاً من هذا وهو غير مشرطن فعليه تبعه وجناح. فاتحة مقاله من سيرة الاب برصنوفيفوس الكبير سأل بعض المتوحدين في بعض الاوقات برصنوفيفوس الكبير كيف يجب ان يستسير المتفرد المتوحد. فاجابه ان صلاوات الساعات والاوزاس هي تقليدات بيعية ونعم ما قلدت لاجل اجتماع واتفاق كاهه الشعب وكذلك رتبت في الكنوبيا لاتفاق الجماعة. فاما سكان الاسقيط فلا ساعات لهم ولا اوزاس تُتلا لكن كل واحد جالس بمعزل مُلازم العمل والهديز وكل قليل يصلى صلاة. وفي حال قيامه في صلاته

^١ القديس برصنوفيفوس الكبير Barsanuphius: ولد بمصر في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، ولكنه ترهب في دير في غزة بفلسطين، ثم توحد بمغارة مجاورة للدير حوالي ٥٠ سنة، وذلك في عهد الإمبراطور جوستيان. قيل إنه لم يكن يلتقي بأحد أو يتصل بإنسان إلا من خلال المراسلة، لذا يعتقد البعض أنه لم يكن يأكل طعاماً أرضياً، كما يُقال إنه صعد للسماوات مثل بولس الرسول، وأعطى موهبة التنبؤ وعمل المعجزات، وبخاصة إذ قيل إنه أقام ميتاً مثل إيليا النبي. يروي أوغريسي أو إيفاجريوس أن أوستاخوس بطريرك أورشليم شك فيما سمعه عن حياة هذا الناسك، فأمر بتحطيم جزء من حائط في القلاية للتأكد من حقيقة حياته، لكن ناراً انطلقت نحو الذين حاولوا إتمام هذا. كتب هذا المتوحد إلى آخرين ينصحهم بالاعتدال في الأكل والشرب والنوم والملبس بما يناسب حد الكفاف. كان يهتم جداً بالكتابة لفاقدي الرجاء، مؤكداً الالتزام بالرجاء في الله غافر الخطية. في المراحل الأخيرة من حياته - من أجل خير الكنيسة - تلقى دعوة من بطريرك القدس لزيارة المدينة، حيث اقنع الإمبراطور بالتخلي عن أفكاره الخاطئة واستعادة العلاقة المتميزة مع كنيسة القس. نتيج حوالي عام ٥٦٣م.

^٢ للأسف الشديد لم يُنشر هذا العمل كاملاً بعد، فاستعنت بنص المخطوط ١٨١ عربي، بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

فيجب عليه ان يصلى ويطلب الخلاص والعتق من الانسان القديم العتيق او ان يقول صلاه ابانا الذى فى السمّوات او يقول الشيين ويلازم عمله جالساً. وفى حال جلوسه فى عمله يجب عليه ان يحفظ مزامير ويهدّها. وفى اخر كل مزمور يصلى جالساً قايلاً. ايها الاله ارحمنى انا الشقى وان كانت افكاره تقلقه فاليقل انت قد تعانين حربى فضافرننى وكل ما عمل عملاً يسيراً فى السبكة ينهض للصلاه ويجثوا كثيراً وكذلك فى حال قيامه وفى حال اجنار كبتيه يتلوا الصلاه المقم ذكرها. وفى الاثنا عشر مزمور المساييه سَكّان الاسقيط يقولون فى اخر كل مزمور ذكساً كامله وهللوييا. وصلاة واحدة. وكذلك الاثنا عشر المزمور الليلية. وبعد المزامير يجلسون فى اعمالهم. ومن احتار فليحفظ مزامير. ومن ومن اختار يبحث افكاره ويتلو سير القديسين وكل ما قرى خمس صفحات او ثمانية يعاود يباشر العمل. وفى حال صلاته...ا.

التعليق:

١. الاطروباريا: من الكلمة اليونانية Τα Τροπάρια ونُقلت للقبطية وكُتبت πτροπαρια (حسب شهادة الكثير من المخطوطات القبطية)^(٣)، وهي تلك القطع المرتلة التي تُتلى كأنديفونا^(٤)، وهي ما تُعرف في زمننا الحاضر باسم "القطع"، التي تتلى بعد قراءة فصل الإنجيل في كل ساعة من ساعات الصلوات الليلية والنهارية^(٥).

٢. الابروكسمناه: من الكلمة اليونانية προκειμενον تقابلها بالإنجليزية Prokeimenon أي النص الذي يُرتل قبل قراءة نص كتابي، وهي قطع خاصة بالطقس البيزنطي فقط، ولا نظير لها في الطقس القبطي.

٣. الاوذاس: من الكلمة اليونانية οδη تقابلها بالإنجليزية Canticle أي

^٣ راجع على سبيل المثال لا الحصر: المخطوطات ١٢٩، ١٣٠، ١٤٧ طقس بمكتبة دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس بالبرية الشرقية، والمخطوط ٦٨٩ مسلسل / ١٢٣ طقس بمكتبة الدار البطريركية القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة، والمخطوط ١٢ قبطي بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس ... الخ.

^٤ راجع: د. ماجد صبحي، "دراسة عن كتاب الأجبية القبطية (٣)" في: مجلة مدرسة الإسكندرية، السنة الأولى، العدد الثالث، سبتمبر - ديسمبر ٢٠٠٩، ص ١٦٥.

^٥ المرجع السابق، ص ١٦٣ - ١٦٨.

نشيد أو تسبيح، وهي تقابل في الطقس القبطي الهوسات، سواء السنوية أو هوسات المناسبات المتنوعة، التي تتكون من عدد كبير من الآيات المنتخبة من سفر المزامير.

٤. الكنوبيا: المقصود التجمع الرهباني (وسنشرحها بالتفصيل فيما بعد).

وأهمية هذه الشهادة تكمن في كونها تأتي من البيئة التي نبتت فيها الشتلة الأولى لكتاب الأجيبة القبطية بصورته الحالية - أي صحاري فلسطين - فكما نوهنا أكثر من مرة أن لدير القديس سابا بفلسطين دوراً لا يُستهان به في عملية استقرار الكتاب المذكور على الشكل الذي عُرف به وبقي عليه حتى اليوم^(٦).

وسوف نبدأ شهادتنا بحديث عن الرهينة البحرية.

أولاً الرهينة البحرية:

سنبدأ عرضنا للموضوع بتسجيل شهادة القديس يوحنا كاسيان (٣٦٥ - ٤٣٥م) عن طقس الصلوات اليومية الليلية والنهارية في الرهينة البحرية، وسنأخذ هذه الشهادة من عمله المشهور "المعاهد"^(٧). ومن المعروف أن القديس كاسيان زار الصحاري المصرية مرتين، وتلمذ على يدي آباءها لمدة سبع سنوات في الفترة من سنة ٣٨٠ إلى سنة ٣٩٩م تقريباً، حيث زارها للمرة الأولى ورحل، ثم عاد مرة أخرى، وأخيراً عاد لبلاده ليؤسس ديرين بجوار مدينة مارسيليا بجنوب فرنسا، ونفذ فيهما القوانين الرهبانية التي نقلها من مصر، وبهذا قدّمت البراري المصرية بذرة الرهينة لأوروبا، بل وللعالم الغربي ككل.

وتبدأ شهادته بأن الرهبان كانوا يجتمعون للصلوة الجماعية مرتين في اليوم، عند غروب الشمس وعند منتصف الليل^(٨)، وكل صلاة منهما كانت

^٦ المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢.

^٧ John Cassien, *Institutions Cénobitiques*, Texte Latin Revu, Introduction, Traduction et Notes, Par Jean-Claude Guy, s. j., Sources Chrétiennes tome 109, 2^{ème} Ed., Paris 2001.

^٨ Cassien, op. cit., liv. 2, 2, p. 92: «Quamobrem exceptis uespertinis nocturnisque congregationibus nulla apud eos per diem publica solemnitas».

تتكون من اثني عشر مزموراً^(٩). فإذا كان المجتمعون راهبين فقط، فكلُّ منهما يرتل ستة مزامير، وأما إذا كانوا ثلاثة رهبان، فكل منهم أربعة مزامير ليرتلها، وأما إذا كان العدد أكثر من هذا يتمونها (يتلونها) سرّاً^(١٠).
وحيثما يُرتل المزمور، يقف بقية الرهبان مُصلين بفهم^(١١)، مرتلين "هليلويا"^(١٢) فقط في المزمور الذي ينتهي بـ "هليلويا".

وكان المزمور ينقسم في الترتيل إلى قسمين أو ثلاثة، حيث يجلس الرهبان خلال ترتيل هذه الأقسام جلسات قصيرة، عُرفت هذه الجلسات اصطلاحاً باسم καθίσματα كاثيسماتا. وبينما كان الرهبان يُرتلون بهدوء كلِّ مقطع (ستيخون στίχον)، كانوا يقدمون أثناء الترتيل الهادئ صلوات قلبية قصيرة.

كانت حكمة الرهبان أن يرتلوا عشرة مقاطع (ستيخونات) من المزمور بعقل، أفضل من أن يُكمل المزمور بدون تركيز، اتباعاً لقول بولس الرسول في الرسالة الأولى إلى كورنثوس (١٤: ١٥)^(١٣).

وإذا كان ثمة راهب حديث العهد بالرهبة، ويُرتل المزمور برتم بطيء (من أجل التعجب بصوته)، وجب على المتقدم في الصلوات وقتها (ὁ ἡγούμενος) أن يُنبهه قارعاً على اليدين، ووجب على جميع الرهبان أن ينتصبوا وقوفاً

⁹ Cassien, op. cit., liv. 2, 4, p. 64: «Igitur per uniuersam ut diximus Aegyptum et Thebaidem duodenarius psalmodum».

¹⁰ Cassien, op. cit., liv. 2, 11, p. 78: «Si duo fuerint fratres, senos psallant, si tres, quaternos, si quattuor, ternos, quo numero numquam minus in congregatione decantant..... numquam amplius psallunt in synaxi quam quattuor, fratres».

¹¹ Cassien, op. cit., liv. 2, 12, p. 78-80: «Qui dicturus in medium psalmos surrexerit, cuncti sedilibus humillimis insidentes a uoce psallentis omni cordis intentione dependant».

¹² Cassien, op. cit., liv. 2, 11, p. 78: «Ut in responsione alleluiae nullus dicatur psalmus nisi is, qui in titulo suo alleluiae inscriptione preaenotatur».

¹³ Cassien, op. cit., liv. 2, 11, p. 76: «Et idcirco ne psalmos quidem ipsos, quos in congregatione decantant, continuata student pronuntiatione concludere, sed eos pro numero uersuum duabus uel tribus intercisionibus cum orationum interiectione diuisos distinctim particulatimque onsumant. Non enim multitudine uersuum, sed mentis intelligentia delectantur, illud tota uirtute sectantes: Psallam spiritu, psallam et mente»; Cassien, op. cit., liv. 2, 11, p. 76-78: «Ideoque uilius habent decemuersus cum rationabili adsignatione cantari, quam totum psalmum cum confusione mentis effundi, quae nonnumquam pronuntiantis festinatione generatur, dum residuorum psalmodum qui decantandi sunt modum numerumque considerans non distinctionem sensuum audientibus studet pandere, sed ad finem synaxeos properat peruenire».

ويكملوا الصلوات، لأن ذلك الراهب الحديث لا يعرف أصول الصلوات الرهبانية، إذ أبرز تصرفاً غير لائق رهبانياً^(١٤).

علماً بأن الرهبان لم يكونوا يسجدون في أوقات معينة، هي: من غروب السبوت وحتى غروب الآحاد في الأيام السنوية^(١٥)، كذلك في فترة الخماسين المقدسة^(١٦). كما اعتاد الرهبان أن يجتمعوا في السبوت والآحاد ويتناولوا من الأسرار المقدسة عند الساعة الثالثة (أي التاسعة صباحاً)^(١٧). ومما هو جدير بالذكر أن هناك أكثر من شهادة في هذا المجال، مثل شهادة كلٌّ من بلاديوس^(١٨) وسوزمين المؤرخ^(١٩).

وفي الأيام السنوية أيضاً، بعد ترتيب المزامير، اعتاد الرهبان أن يرتلوا الأنديفونا Ἀντίφωνα ويتبعونها حالاً بالمجدلة أو الذكصا (أي المجد للآب والابن...)^(٢٠). ويختمون خدمة هذه الصلاة بقراءة فصلين من الكتب المقدسة، أحدهما من العهد القديم والآخر من العهد الجديد^(٢١). وفي السبوت والآحاد وفترة الخماسين المقدسة كانت القراءتان من العهد الجديد، واحدة من رسائل

¹⁴ Cassien, op. cit., liv. 2, 11, p. 78: «Denique si quispiam iuniorum uel pro feruore spiritus uel pro eo quod necdum institutus est coeperit modum decantationis excedere, psallentis progressio senioris interciditur plausu, quem dans manu sua in sedili quo sedet cunctos facit ad orationem consurgere, illud omnimodis prouidens, ne quod taedium sedentibus generetur prolixitate psalmodum, qua is qui decantat non modo per se ipsum intellegentiae fructum amittat, sed etiam per illos incidat detrimentum, quos fastidium synaxeos nimietate sua fecit incurere».

^{١٥} الأيام السنوية: تعبير ليتورجي يعني الأيام التي لا يقع فيها احتفال بأعياد سيديّة أو أصوام معينة.

¹⁶ Cassien, op. cit., liv. 2, 18, p. 88: «A uespera sabbati, quae lucescit in diem dominicum, usque in uesperam sequentem apud Aegyptios genua non curuari, sed ne totis quidem Quinquagesimae diebus».

¹⁷ Cassien, op. cit., liv. 3, 2, p. 92-94: «Absque die sabbato uel dominica celebratur, in quibus hora tertia sacrae communionis obtentu conueniunt».

¹⁸ Παλλαδίου, op. cit., liv. 7: «τὴν δὲ ἐκκλησίαν σαββάτω καταλαμβάνουσι μόνῳ καὶ κυριακῇ».

¹⁹ Σωζομενου, «Ἐκκλησιαστικὴ Ἱστορία», Migne PG 67, 6ο βιβλίον, κεφ. 31, p. 1111: «καὶ ἐκκλησιάζουσι τῇ πρώτῃ καὶ τελευταία ἡμέρᾳ τῆς ἑβδομάδος».

²⁰ Cassien, op. cit., liv. 2, 8, p. 72: «Gloria Patri et Filio et Spiritui sancto, nusquam per omnem Orientem audiuius, sed cum omnium silentio ab eo, qui cantat, finito psalmo orationem succedere, hac uero glorificatione Trinitatis tantummodo solere antiphona terminari».

²¹ Cassien, op. cit., liv. 2, 4, p. 64: «Igitur per uniuersam ut diximus Aegyptum et Thebaidem duodenarius psalmodum numerus tarn in uespertinis quam in nocturnis sollemnitatibus custoditur, ita dumtaxat ut post hunc duae lectiones, ueteris scilicet ac noui testamenti singulae subsequantur».

بولس الرسول أو من سفر أعمال الرسل والثانية من الأناجيل الأربعة^(٢٢). وفي نهاية الصلاة، كان الرهبان يسجدون لوقت قصير مصلين بذهن فطن، ويختمون الخدمة بصلاة قصيرة^(٢٣).

وفيما يقدم القديس يوحنا كاسيان هذه الشهادة، ذكر تقليدين لأصل ترتيب هذه الصلوات: التقليد الأول يعود للقديس الرسول مرقس الإنجيلي مبشر أرض مصر الأول^(٢٤)، والثاني يعود لله بواسطة ملاكه^(٢٥).

وفي الكتاب الثالث من عمله هذا، قارن القديس كاسيان بين رهبنة مصر والرهبنة في كل من فلسطين وبلاد ما بين النهرين، وهي البلاد التي زارها كاسيان بنفسه^(٢٦)، وفي النهاية توصل إلى أن طريقة حياة الرهبنة في البراري المصرية أصعب بكثير من الرهبنة في فلسطين وبلاد ما بين النهرين، كما أن الصلوات في البراري المصرية كانت مستمرة طوال اليوم دون توقف^(٢٧).

²² Cassien, op. cit., liv. 2, 6, sp. 68-70: «In die uero sabbati uel dominico utrasque de nouo recitant testamento, id est unam de apostolo uel actibus apostolorum et aliam de euangelis, quod etiam totis Quinquagensimae diebus faciunt hi, quibus lectio curae est seu memoria scripturarum».

²³ Cassien, op. cit., liv. 2, 7, p. 72: «Cum autem is, qui orationem collecturus est, e terra surrexerit, omnes pariter eriguntur».

²⁴ Cassien, op. cit., liv. 2, 5, p. 64: «Nam cum in primordiis fidei pauci quidem sed probatissimi monachorum nomine censerentur, qui sicut a beatae memoriae euangelista Marco, qui primus alexandrinae urbi pontifex praefuit».

مما هو جدير بالذكر أن هناك أكثر من مرجع يؤكد نفس المعلومة، أهمها: يوسابيوس القيصري في كتابه تاريخ الكنيسة، راجع:

Εὐσέβιος Καισαρείας, Ἐκκλησιαστικὴ Ἱστορία Β', 16, ἐν ΒΕΠΕΣ, τόμ. 19, p. 237: «Τοῦτον δὲ (Μάρκον) πρῶτον φασιν ἐπὶ τῆς Αἰγύπτου στειλόμενον τὸ εὐαγγέλιον, ὃ δὴ καὶ συνεγράψατο, κηρῦσαι, ἐκκλησίας τε πρῶτον ἐπ' αὐτῆς Ἀλεξανδρείας συστήσασθαι».

²⁵ Cassien, op. cit., liv. 2, 6, p. 68: «Exhinc uenerabilis patrum senatus, intellegens angeli magisterio congregationibus fratrum generalem canonem non sine dispensatione Domini constitutum».

²⁶ Cassien, op. cit., liv. 3, 1, p. 92: «De nocturno orationum et psalmodum modo, quinam per Aegyptum habeatur, donante Deo, quantum tenuitas ingenii nostri praeualuit, arbitror expeditum. Nunc de sollempnitatibus tertiae, sextae nonaeque secundum regulam monasteriorum Palaestinae uel Mesopotamiae nobis est disserendum, ut praefati sumus in prologo, perfectionem Aegyptiorum et inimitabilem disciplinae rigorem horum institutis moderantes».

²⁷ Cassien, op. cit.

كما ذكر لنا القديس يوحنا كاسيان أن الرهبان كانوا في يومي السبت والأحد يجتمعون بالكنيسة ليكملوا عباداتهم^(٢٨)، وهذا بعكس باقي أيام الأسبوع، بينما لم يقدم لنا معلومات محددة عن سبب اختيار هذه الأرقام المعينة من المزامير التي يستخدمها الرهبان في صلواتهم في الكنيسة. بهذه الشهادة، يكون القديس يوحنا كاسيان قد قدم لنا وصفاً مهماً للشكل العام للعبادة في الصحاري المصرية في القرن الرابع الميلادي.

²⁸ R. Taft, *The Liturgy of the Hours in East and West (The origins of the Divine Office and its meaning for today)*, Collegeville, Minnesota (U. S. A.), The liturgical Press, 1986, p. 61.